القدس ومكانتها الإسلامية (٢)

الأخ أبو الهدى

الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وتحريره

جاء القرن الخامس الهجري والعالم الإسلاميّ متفسخ سياسياً ، فيه خليفتان أحدهما في بغداد والآخر في القاهرة ، والعديد من الملوك والسلاطين ، حتى أنه كان لكل مدينة في الشام ملك أو وال .. فكان لهذا التفسخ السياسي والصراع على السلطة بالإضافة إلى التفسخ الروحي وتفشّي الانحلال والفساد الأثر الكبير في تشجيع الصليبيين في أوروبا على التفكير بغزو العالم الإسلاميّ والتركيز بالذات على أحد مراكزه المقدسة .. وكان بالطبع هو بيت المقدس لما يحيكونه حوله من الدعاوى والحقوق ..

واتفقت كلمة الصليبيين سنة ٤٨٨هـ بقيادة (البابا) في مجمع (كليرمون) بفرنسا على القيام بالغزوة الـــصليبية .. وكان لهم ما أرادوا فاجتاحوا المدن الإسلاميّة زحفاً من (القسطنطينية) في اتجاه بيت المقدس حتى تمّ لهم حصاره لمـــدة شهر ثم احتلاله سنة ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م

و لم تكن هذه الغزوة أقلّ تدميراً وتقتيلاً من سابقتيها على أيدي الوثنيين من الفرس وأيدي الرومـــان ، فـــسالت الدماء أنهاراً ، وكانت هذه المرة دماء المسلمين بعد أن نهجوا نهج اليهود من فساد الخلق وترك كتـــاب الله وتحكـــيم الهوى والشهوات فنالهم مثل الذي نال اليهود من قبل ، وحقت عليهم كلمة الله

وبينما استقر الصليبيون في بلاد الشام وأسسوا على الساحل عدة إمارات امتدت من خلـــيج الاســـكندرونه إلى عسقلان ومن خليج العقبة إلى شمال (الرها) -واسمها اليوم أورفا- في شرق تركيا .. كان الأمراء والملوك المـــسلمون يتقاتلون ويتنازعون على ما بقي لهم من الأعداء ، وكانت الطامّة الكبرى عندما وجدوا في هذا المغتصب الفاجر عوناً يلجؤون إليه ضدّ بعضهم البعض مضيّعين الإسلام والمسلمين

ولله في خلقه شؤون .. ولن يترك تلك البقعة المباركة تستباح وتستذلّ تحت أقدام الكفار مـــن أي جـــنس وأي نوع .. فقيّض لتخليصها رجالاً أوفياء تأخذهم الغيرة على الإسلام ، فبدأ عماد الدين الزنكي الجهـــاد في ســـبيل الله لتخليص الأرض الإسلاميّة من أيدي المحتلّين وتطهير بيت المقدس ومسجده الأقصى الـــذي حوّلـــه الـــصليبيون إلى كنيسة .. وسار على الدرب بعده ابنه نور الدين محمود حتى جاء الدور على البطل الكردي المسلم صـــلاح الـــدين الأيوبي .. وكأنّ الله سبحانه أراد أن يعلّمنا -نحن العرب بالذات- أنّ شرف حمل رسالة الإسلام لا يكـــون إلاّ لمـــن يحافظ عليها ، وأننا لا نساوي شيئاً إن لم نعمل بها ، فأرسل إلينا ذلك الكردي المسلم الذي ملأ قلبه الإيمان ، وأهمّـــه ما تعانيه البقعة المباركة من الذلّ والمهانة فكان كما يصفه صاحبه ومرافقه القاضي بهاء الدين بن شداد :

(كان –رحمه الله– عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال)

(وكان كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بــين الأطــلاب بنفسه وينادى : يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع)

هذا هو صلاح الدين الذي ولد سنة ٥٣٢هـ – ١١٣٧م أي بعد حوالي أربعين سنة من احتلال القدس وتحويــل مساجدها إلى كنائس ، فكيف بدأ صلاح الدين جهاده لتحرير القدس ؟ ..

قال عن ذلك ابن شداد :

(إنه تاب عن المحرّمات وترك الملذات ، ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلقه لأمر عظيم لا يتفق معه اللهو والترف)

فهذا هو الرجل الذي حمل همّ القدس فأخذ منه كل مأخذ وحلّ في قرارة نفسه .. وبهذا الهمّ الشاغل والــنفس القلقة والقلب المنــزعج استطاع صلاح الدين أن يؤدي ما نذر نفسه له وعاهد الله عليه : ويكتسب الفتح المــبين في موقعة حطين في ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ وما تلاها من المعارك التي حرّرت أغلب البقــاع الإســلاميّة مــن أيــدي الصليبيين ..

وكان الفتح الإسلاميّ للقدس على يدي صلاح الدين بنفس مظهر فتحها الأول وسماحته على يدي عمــر بــن الخطاب رضي الله عنه ، فلم يُرِدْ ذلك المسلم التقي –وهو يعرف حرمة البيت الذي باركه الله تعالى وبارك حوله– لم يرد أن يتعرض له بسوء واختار أن يدخل المدينة المقدسة صلحا .. وكان من معاملته الإسلاميّة الكريمة ما روى عنــه التاريخ الشيء الكثير .

وتمّ ذلك الفوز العظيم في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وهو يوم الإسراء .. وكأنَّ في هذا أيــضاً تــذكرة للمسلمين بقيمة ذلك المكان الشريف فأعزّهم الله بفتحه في وقتين من أحب الأوقات إليهم .. في يوم جمعــة حيــث أقيمت الصلاة في بيت المقدس لأول مرة بعد أكثر من تسعين سنة ، وفي ذكرى الإسراء حيث كان رسول الإســلام محمد بن عبد الله –أفضل الصلوات والسلام– يصلي في نفس هذا المكان قبل ستة قرون . ولم يتمكن المسلمون مــن أداء صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى في يوم الفتح لأنهم شغلوا بتطهير المسجد مما دنسه به الصليبيون . وقــد نــصب صلاح الدين الأيوبي هناك المنبر الذي أمر نور الدين محمود بصنعه في حلب خصيصاً للمسجد الأقصى قبل عــشرين عاماً من الفتح ، وهو نفس المنبر الذي احترق يوم ٢١ آب/أغسطس عام ١٩٦٩م عندما حرق المسجد الأقصى .

وكانت أول صلاة جمعة في المسجد الأقصى بعد تطهيره في الرابع من شعبان سنة ٥٨٣هـ والتاسع مــن تــشرين الأول/اكتوبر سنة ١١٨٧م

ولا حاجة للاسترسال طويلاً مع السيرة العطرة لصلاح الدين -رحمه الله- إلاّ أن فيها عبرة كبرى لنا ، لنعلم أين الطريق إلى تحرير القدس .. وكيف سلكه ذلك المؤمن المجاهد والذين كانوا معه .. وتكفينا فقرة قصيرة من كلام ابن شداد عن حال ذلك البطل المسلم في حربه ضد أعداء الإسلام وقد أعدّ العدة لمواجهتهم ؛ يقول ابن شداد :

(كان إذا سمع أن العدو قد داهم المسلمين خرّ إلى الأرض ساجداً لله ، داعياً بهذا الدعاء :

(إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق لي إلاّ الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل)

وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم :

﴿ ... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الــصَّلاةَ وَآتَــوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠-٤١]

ومنذ ذلك اليوم المبارك والقدس في موضعها الإسلاميّ العزيز والمسجد الأقصى يفتح أبوابه للمــسلمين المــصلين مرفوع الهامة عزيز الجانب حتى سلّمه العرب المسلمون لليهود في القرن الرابع عشر للهجرة

وغاب الإسلام .. فضاعت القدس !

جاء الغزو الأوروبي للعالم الإسلاميّ في القرن الثالث عشر للهجرة وكانت البلاد الإسلاميّة فريسة سهلة للصليبيين الجدد ، يتنازعون أمرها بينهم تارة ويوزعونها على بعضهم تارة أخرى ، حتى كانت نهاية الخلافة الإسلاميّة وتناثرت أجزاء العالم الإسلاميّ في أيدي الغزاة الأوروبيين وكانت القدس وفلسطين عامة من نصيب الأسد البريطاني الذي آلى على نفسه أن يعيد كتابة تاريخها بصياغة جديدة بوعد بلفور المشهور في ٠٢ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩١٧م

وبدأت صحوة تعمّ العالم الإسلامي المحتل قادتها العناصر الإسلاميّة المخلصة فكانت غذاء وفداء لها حــتى يــئس المحتلون من البقاء وأسرّوا الرحيل . وما كان الصليبيون ليتركوا أمور المسلمين بأيدٍ غيورة على الإسلام فسعوا سعيهم قبل أن يرحلوا حتى ثبّتوا على قمة الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلاميّة من يفعــل فعلــهم دون حاجــة إلى رفــع الصليب .. وبالإضافة إلى هذه الطامة الكبرى ترك المحتلون ضمن ما تركوا من حياة هازلة لاهية مستخفّة بأحكام الله معتدية على حدوده ، تركوا تلك الغزوة الصهيونية العاتية بعد أن ثبّتوا دعائمها تحت سمع الجميع وبصرهم .. وتنافس الزعماء العرب في الصياح والمزايدة بقضية فلسطين حتى كانت النكبة الأولى سنة ١٩٤٨م باحتلال اليهــود الجــزء الأكبر من أرض فلسطين الإسلاميّة ومن ضمنها الجزء الجديد من مدينة القدس ، وظهرت لإسرائيل دولة لأول مــرة منذ الأعوام الأولى للتقويم الميلادي ، وخيّل للمسلمين أن العرب قد أفاقوا بهذا الدرس القاسي ، وظهر في الإذاعــات ووسائل الإعلام عشرات من صلاح الدين مزيفون ، وظنّ المسلمون أن العرب قد عادوا إلى الطريق الذي يعرفونــه

جيداً ، والذي ما سلكوه مرة واحدة فضلّوا ، وما سلكوا سواه مرة فاهتدوا .. ألا وهو طريق الله ، طريق الإسلام .. ولكن الصليب لم يكن في هذه الأيام غبياً ، فقد كان هناك إصرار عجيب على إبعاد الإسلام عــن قــضية تخــص المسلمين جميعاً ، وسارت الحياة سيرتها الأولى بل أضل سبيلاً ، ونُحي الإسلام جانباً ورُفعت راية القوميــة ، نُحــي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر ، وقدّم أبو جهل وأبو لهب وأبو خالد .. رفعــت إســرائيل التوراة –كتاب الله الذي حرّفوه وانحرفوا عنه– ورفع العرب كل كتاب ومجلة وميثاق إلاّ القرآن الكريم ، واجهتنــا إسرائيل بالعقيدة وواجهناها بالعصبية .. وانتظرنا على أحرّ من الجمر المعركة الموعودة وإلقاء اليهود في البحر .. وإذا بالمصيبة الكبرى تنــزل على المسلمين كافة ولا تخص العرب وحدهم في ذلك اليوم الحزين الخامس والعشرين مــن صفر سنة ١٣٨٧هـ – الخامس من حزيران/يونيو سنة ١٩٦٧م .. وسقطت القدس .. سقط المسجد الأقصى فريــسة سهلة في أيدي الصهاينة ، وأدى العرب المسلمون واجبهم وحافظوا على القدس أربعة عشر قرناً حتى سلّموها لليهود وكأنها لا تخص أحداً وأصبحت كما يقول الشاعر تصرخ والإسلام أنصاره صمّ وعميان

ونسيت جماهير ٠٩ حزيران/يونيو المسجد الأقصى فخرجت تبكي من ضيّعوه .. في هذا اليوم الحزين ، الجمعــة ٢٩ صفر و٠٩ حزيران/يونيو لم يصلّ المسلمون الجمعة في المسجد الأقصى لأول مرة منذ ثمانية قرون ، وفي نفس هذا اليوم الحزين عربد الإسرائيليون وصلّوا في الحرم الشريف بالمدينة المقدسة ..

ونسي قادة ٥ حزيران/يونيو المسجد الأقصى والقدس المباركة وتلفتوا تجاه الشرق والغــرب يلتمــسون العــون والنصرة ، وأخذتهم العزة بالإثم أن يعودوا إلى الطريق المستقيم الذي سلكه أجدادهم فدانت لهم الدنيا بأسرها .

لقد ارتوت المدينة المقدسة بدماء البشر على مرّ العصور .. ارتوت بدماء الأنبياء الذين قتلــهم بنــو إســرائيل ، وارتوت بدماء اليهود لانحرافهم وضلالهم ، وارتوت بدماء المسلمين عندما جرفتهم الحياة اللاهية ونــسوا حــق الله عليهم .. والتاريخ يشهد بأن المسلمين كانوا أعظم الفاتحين سماً وأبعدهم عن حروب الفساد والإذلال . ولن تعود القدس مرة أخرى إلاّ بالإسلام –وستعود إن شاء الله– ولن يحرر القدس إلاّ المسلمون –وسيحررونها إن شاء الله– .

﴿ ... **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَــا عَلَــوْا تَتْبِيرًا** ﴾ [آل عمران : ٧]